صورة اليهودي والنسق المضمر في رواية (أنا وحاييم) للحبيب السايح

The image of the Jew and the implicit pattern in the novel (Me and Haim) by Habib Al-Sayeh

د. عبدالله كروم
جامعة أدرار– الجزائر
Kerroum197401@gmail.com

Abstract
In the novel "Me and Haim," Habib Sayeh raises the issue of coexistence under the national state in the aftermath of independence, which chose unilateralism and revolutionary legitimacy as support for building a totalitarian system that does not accommodate the various components of Algerian society. whether on the linguistic, religious, intellectual or sectarian level.
And the issue of coexistence between religions, races, and cultures within societies constitutes an obstacle to totalitarian regimes, extremist ideas, and societies that are dominated by certainties, inflated ego, and swelling of the self by preference and selection at the expense of the other who is different in religion, language, or doctrine, even if he is a patriot who performs all the rights of citizenship, and therefore it was necessary to ask these questions. The following: Does the novel (Me and Haim) discuss the issue of coexistence, or is it an implicit discourse of normalization with the Israeli entity? What is the image of the Jew in Algerian society? Are the Jews one model, or are there different images?
Keywords: image, Jew, implicit patterns, Arabic novel, Algerian literature

الملخص:

في رواية " أنا وحاييم" يطرح لحبيب السايح[1] مسألة التعايش في ظل الدولة الوطنية غداة الاستقلال، والتي اختارت الأحادية والشرعية الثورية سندا في بناء نظام شمولي، لم يستطع استيعاب مكونات المجتمع الجزائري المتعدد، سواء أكان على المستوى اللغوي أم الديني أم الفكري أم المذهبي.

و قضية التعايش بين الأديان والأعراق والثقافات داخل المجتمعات تشكل عائقا للأنظمة الشمولية والأفكار المتطرفة والمجتمعات التي تسيطر عليها اليقينيات وتضخم الأنا وتورم الذات بالتفضيل والاصطفاء على حساب الآخر المختلف دينا أو لغة أومذهبا،ولو كان وطنيا يؤدي كل حقوق المواطنة، ولذا كان لابد من طرح هذا الأسئلة الآتية: هل رواية (أنا وحاييم) تناقش قضية التعايش أم هي خطاب مضمر للتطبيع مع الكيان الإسرائيلي ؟ وما هي صورة اليهودي في المجتمع الجزائري؟ وهل اليهود نموذج واحد أم هناك صور مختلفة؟

الكلمات المفتاحية: الصورة، اليهودي، الأنساق المضمرة، الرواية العربية، الأدب الجزائري.

مقدمة: تُعدّ قضية التّعايش بين الأديان والثّقافات المتعددة في المجتمع الواحد من القضايا الملّحة والحسّاسة في الحياة المعاصرة منذ نشأة الدولة الوطنية ومرحلة ما بعد الكولونيالية إلى يومنا هذا، بل ازدادت شراسة اليوم أكثر بالنظر لتحولها إلى صراع دموي مسلح (الجماعات الإرهابية وغير المسلمين في العراق ونيجيريا، الروهينغا في بورما، المسلمون في أفريقيا الوسطى..)، ونظرا لما أصبح يعكسه مدّ وخطاب الكراهية من طرف اليمين المتطرف في أوربا وأمريكا الجنوبية، وبالنظر أيضا لما تطرحه هذه القضية من نقاشات وسجالات داخل المجتمع الذي تقوده الأغلبية نحو هضم حقوق الأقليات ومحاولة محو آثارهم وممارسة التذويب والإقصاء عليهم(إيران، تركيا، الهند، الصين...)

أولا: صورة الآخر (الصورولوجيا) في الدراسات المقارنة:

ظهر علم دراسة الصورة(الصورولوجيا) إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر، حينما سافرت الأديبة الفرنسية الشهيرة (مدام دوستال) إلى ألمانيا، ورسمت صورة مغايرة عن الألماني الذي تنمطت صورته بوصفه مشوها وسيئ السمعة، لتظهره شخصا آخر يحمل قلبا طيبا ومحاسن كثيرة، وسجلت إعجابها بروعة الطبيعة وسحر جمالها في ألمانيا، كما أنها كشفت عن انبهارها بالمستوى الراقي للفلسفة الألمانية[2].وتكون بذلك قد كسرت تلك الصورة النمطية عن الألماني النازي والمتخم بعرقه الجرماني الأنقى والأصفى في نظره.

محصلة الرحلة التي قامت بها (مدام دوستال) أثمرت في تأليفها كتاباً حمل اسم (ألمانيا)فقط، وعملت فيه على تصحيح الصورة تلك النمطية السائدة عند الفرنسيين عن الألمان وسلوكهم، لتكسر تلك الصورة السلبية وتبني صورة جديدة إيجابية، وقد اعتبر بعض الدارسين هذا الكتاب بمثابة الانطلاقة الجادة لما يعرف بالدراسة الأدبية للصورة[3].

إن الصورة الأدبية هي من جملة فروع الدراسات المقارنة، حيث تساعد على إبراز الأنماط السلوكية في المجتمعات المختلفة بما فيها تلك الخاصة بها، بوصفها تعبيرا أدبيا يوحي إلى نظامين مختلفين بحمولتيهما الثقافية، وإلى مكانين مختلفين، لتكون الصورة قسما مرحلا من المخيال الشعبي، وبنية الثقافة، ومنه تتأسس كل صورة على وعي الأنا مقابل الآخر.

ومنه فإن الذات تتأسس ويعاد تأسيسها في صراعها مع الآخر، ولأجل ذلك يصحب أي تشويه للآخر تشوها كامنا في الذات، وعلى العكس عندما تبادر الذات بالاعتراف بالآخر وخصوصياته وقبوله واندماجه فإن المآل هو التناغم والانسجام في طبيعة الذات قبل الآخر.

لقد قام الباحث المغربي عبد النبي ذاكر بترجمة كتاب (الصورة، الأنا، الآخر)[4]، وفيه اقترح فكرة إعادة الاعتبار لمبحث الصورلوجيا الذي لزمه الاعتراض، فأخرج من حظيرة الأدب المقارن، وتحاشت تصنيفات الدرس المقارن الخوض فيه إذا كان الآخر" هو الطريقة التي تعرّف بها الذات نفسها " على حد تعبير جورج غادمير(فيلسوف التأويل)، وبعيدًا عن تلك النظرة التشيئية للآخر، نجد الناقدة جوليا كريستيفا (الناقدة الفرنسية من أصل بلغاري) تحدد أنه "لو كنت أجنبيًا، لما كان هناك أجانب"[5]، غير أنه عند دراسة صورة مجتمع ما أو العمل الأدبي لشعب آخر، سيواجه الباحث الصورلوجي عدة صعوبات تطبيقية مردّها إشكالات نظرية ومنهجية، تجعل الدارس يقصيها من حقل الأدب المقارن، بسبب اشتغالها على أدب الدرجتين الثانية والثالثة، ولمجاورتها علوم مختلفة منها: التاريخ، وتاريخ الأدب،والسوسيولوجيا، والسيكولوجيا القومية، ودراسة الرأي العام، والتاريخ الثقافي، ومن مزالقها ومساوئها أنها لا تجعل الباحث هادئًا ومحايدًا وموضوعيًا، بسبب محاصرته من طرف الصورة وبلاغتها ومشهديتها، ولتورطها في شراك معيار درجة الصدق في الصورة من كذبها، وأيضًا لتنافرها مع أشكال الصور المتنافرة حول الشعب الواحد، ثمّ تداخلها بشكل غير مشروط على حقول معرفية متعددة، بعضها نسقي(System) يركز على النص ويهمل التحليل المستند إلى السياق(context) وحمولته التاريخية والثقافية، بينما بعضها الآخر لا يعدو عن كونه مسردًا لصور الآخر الأجنبي، أو مبحثا من مباحث تاريخ الأفكار، أو فرعا من سوسيو- تاريخي وثقافي، وتفاديا لكلّ مطب مشابه، يقترح الباحثان (هنري وموراً) أن تتجه الصورلوجيا نحو تجاوز الواقع، وإن بات هذا التجاوز حبيس تصوّر محدد للشفهي، وما له من خصوصيات في بلورة الدلالة داخل النص الغيري وتواشجه عبر النصية[6].في نظر الباحثين أن الصورلوجيا تتربع في عمق البحث المقارن، بوصفها تقوم على معرفة الأجنبي أو الآخر، إذ الصورة تتطلب المقارنة، كتلك التي يقوم بها الرحالة منطلقا من المنظورات والفضاءات والمتخيلات والقيم التي بنت ذاته.

يلقي الكتاب(الصورة، الأنا، الآخر) الضوء على المفاهيم الصورلوجية، تلك التي تشكو من التعتيم، كالصورة، والقالب، والكليشيه، والمتخيّل، والهوية، والرأي، والنظرة، والآخر، والإيديولوجيا، ويصنع البحث مناسبة لتخليص الصورلوجيا من التهمة الوضعانية، وفخ الموسوعية العقيمة، ويخلص إلى الإشادة بالانفتاح على البنيوية ونظرية التلقي والسوسيو- والسيميائيات والنقد الثقافي.

ثانيا: صورة اليهودي في الرواية العربية:

تعتري المرء أحيانا العديد من القضايا والافكار التي لطالما خالجت خلده قبل فكره حول قضية اليهود، خصوصا في خضم التطورات المعاصرة وتحديات العولمة، التي باتت واقعا في المجالات الاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية ناهيك عن هذا الموضوع في الكتابة الإبداعية وما تثيره من ردود ونقاشات في الأوساط الثقافية العربية التي تحركها تطورات الصراع العربي الإسرائيلي.

كثيرة هي الدراسات والأبحاث التي تؤكد هيمنة اليهود على المشهد العالمي رغم قلة عددهم، لكن الفاعلية وقوة التخطيط واستراتيجية التفكير البعيد والمنظم جعلهم يمتلكون أمبراطوريات اقتصادية وإعلامية وثقافية ومؤسسات مالية عملاقة تمكنهم من السيطرة على مراكز القوة وصناعتها و بلورة الرأي وحسن التمركز، وهذا ما أشار إليه المليونير اليهودي " دي والتر راثنو" بقوله : '' هناك ثلاثمئة رجل كل منهم يعرف زملاءه الآخرين، ويتحكمون في مصير العالم إنهم ينتخبون حلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم، وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها"[7] كما أنه أبرز تلك الأفكار والرؤى على الصعيدين الثقافي والأدبي التي يشتغل عليها اليهود محاولين بذلك بسط نفوذهم ووضع اليد على مصادر القوة المتمثلة في المعرفة والمال والحكم أو السلطة، ومن أهم مظاهرها : الإصلاح البروتستانتي (يعد مارتن لوثر الأب الشرعي لهذا الإصلاح) الذي له جهود كبيرة في حضور اليهود في الفنون، والآداب، والثقافة، وعالم الأفكار، حيث نلمس جملة من التأثيرات في موضوعات شتى ترسخ هذا الحضور، يتجلى في تأسيس إيقونات وعلامات ذات مرجعية توراتية[8] لقد جسد الكثير من الروائيين العرب المعاصرين خاصة بعد نكسة 1967 وتولد الصراع العربي الإسرائيلي، وظهرت تلك النبرة المعادية لليهود الصهاينة المعتدين على الأرض المقدسة، وصحبته صورة سلبية عن اليهود بصفة عامة، لدرجة عدم التمييز بين اليهودي الوطني واليهودي المتصهين (كدولة وظيفية بتعبير الراحل عبدالوهاب المسيري).

وهذا الموقف صوره الكيلاني في "حارة اليهود دم لفطير صهيون "، حيث أن نجيب الكيلاني يقدم في هذه الرواية (1971م)رؤيته التي يبين فيها ألوان الظلم عند اليهودي وعدائهم تجاه البشرية، وهذه الرواية تكرس تلك الصورة النمطية لليهود بوصفه (مخادع، فاسد، ومفسد، خبيث، مراوغ، شرير، قاتل..)

لقد جسد الكيلاني اليهود في هذه الرواية شعبا لا يلتزم بالأخلاق والقيم من خلال شخصيات غير ملتزمة بالأخلاق، ف ''كاميليا زوجة هراري '' تمارس الخيانة الزوجية مع الخادم وتعكس طوية منفلتة وسائبة في خفية من زوجها. وأبرز دمويتهم عندما أقام الرواية على حكاية واقعية .

انبنت الرواية على فكرة واقعية تتحدث عن أسطورة الفطير اليهودي المعجون بدماء القس المسيحي " البادري توما" وحدثت في دمشق عام 1840 إبان حكم محمد علي باشا لمصر، وتقول الحكاية إن الأب توما كان يعمل مداوياً يعالج الصبية خاصة من مرض الجدري، لكنه في يوم من الأيام اختفى القس توما بظروف غامضة هو وخادمة وكانت أخر حارة شُوهد بها هي حارة اليهود، وهنا انطلقت أحداث القصة التي تناقلتهاالأجيال حتى يومنا هذا والتي تؤكد اختلاط دماء القس في الطحين المكون للفطير اليهودي.

ونقل هذه الصورة الروائي التونسي محمد الباردي في روايته" حنة " حيث ذكر اليهود بصورة ظهروا فيها منبوذين غير محبوبين بناء على صورة عائلته، وخاصة أمه التي شبهتهم بالوسخين: (أصبحت الآن أعرف الشوارع الرحبة وأزقتها باستثناء الحارة، كانت أمي توصيني بالابتعاد عنها وكانت تقول لي : ابتعد عن اليهود، وكانت تقول ايضا الحارة نتنة، طعام اليهود نتن، وثيابهم نتنة، وأجسادهم نتنة "[9]. في هذا المقطع يبين لنا أن اليهود محتقرون لدرجة أن الأميين من يحكمون عليهم. وهذا الموقف "موقف أم الباردي " يتناقض مع رؤية وموقف الروائية "خولة حمدي" التي تنحاز للتعايش وخاصة في روايتها (في قلبي أنثى عبرية) التي تبرز مدى تداخل الدين في المجتمع العربي الذي تتفاعل فيه الديانات الثلاث (يهودية ،مسيحية ،وإسلام)، إذِاستطاعت الرواية أن تصور كيف تعايشت هذه الديانات طيلة عدة قرون، فكان يمكن لليهودية أن تتزوج المسلم أو المسيحي، فتزوجت سونيا اليهودية من سالم التونسي المسلم ، حيث تقول ندى : " خالتي تزوجت من رجل مسلم، وخالي ارتبط بمسلمة .."[10] وحتى الضوابط الدينية تسمح زواج المسلم بالكتابية ، أما المرأة فيمنع أن تتزوج بغير المسلم فالرواية تنحاز للإسلام وتحاول إبرازه بأنه دين الله ومن يبغي غيره فلن يقبل منه دينا.8

فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط ، وهم أبناء العائلة الإنسانية ويوفر لهم الإسلام جميعا الحق في العيش والكرامة دون استثناء بشرط ألا يعتدي أحدهم على الآخر، ولا يسلبه أرضه وداره، وألا يحرمه من وطنه، فهذا لا سلام معه ولا مهادنة، وكل من يجنح للسلام فإن المسلم مطالب

بالبر والإحسان للآخر ما دام مسالما ومعاهدا على التعايش. إن الاختلاف في الدين ليس مدعاة للتنافر والتناكر، بل هو سبب للتعارف والتعاضد والتعاون على الخير والبر والتقوى، كما جاء في القرآن الكريم " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل إن أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير "[11] بدليل أن أحمد هو شاب مسلم تعرف على " ندى " وهي فتاة يهودية تنحدر من أسرة تونسية ، وكانت العلاقة بينهم علاقة مودة ورحمة فاستلطف بعضهما ، وانتهت بهم العلاقة إلى شيء رسمي وهو الخطبة والشيء الأجمل في تلك العلاقة هو طلب أحمد من ندى التعرف على الإسلام، ولم يطلب منها أحمد أن تقرأ القرآن وتفسيره، بل وجهها إلى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وشجعها على البدء من هناك..

رابعا: صورة اليهودي في الرواية الجزائرية:

إنّ المتتبع للنصوص الروائية في الجزائر المكتوبة بالعربية منها وبالفرنسية في السنوات الأخيرة يلاحظ اهتمام الكثير من الكتاب بتوظيف الموروث اليهودي في نصوصهم، وتراوحت بين المخاتلة والاحتراز الذكي، وبين التعبير المباشر عن المواقف والرؤى وبجرعة زائدة تعدت المألوف، وبين التقطير والمضمر والخفي والتسلل على مهل.

واللافت أن هذه الكتابات لم تتعرض إلى الشخصية الفردية لليهودي بقدر ما تعرضت إلى تأصيل وجوده المكاني والاجتماعي في قالب من التعاطف والحنين ومحاولة إنصافه، وذلك بعرض شخصيات حقيقية عاشت في الجزائر وربما ما تزال تعيش بعد تغيير الأسماء والألقاب، ودون قراءة تاريخية لذلك الوجود، وهل انخرط في المصلحة الوطنية أم أنه شكل طابورا خامسا، وانضم لصفوف الآخر في تنكر تاريخي، إذا استثنينا بعض المواقف الشاذة والحالات الفردية التي لا تحسب إذا قورنت بالموقف الجمعي الذي صنعته الجالية بعد صدور قانون الأهالي سنة 1870، والذي مايز بين الأنا والآخر بشكل جلي.

غير أن الكتابات الجديدة ركبت الموجة تسويقا لنشر ثقافة السلم والتعايش واستدعاء التاريخ تمهيدا لدس خضاب مضمر يسوق للتطبيع الذي يرفضه المجتمع الجزائري بمختلف شرائحه حفظا على مجد ثورته وجهاده المرير ضد المحتل الفرنسي، وقيام دولته الوطنية على أساس الشرعية الثورية والنضال الدموي من أجل الحرية، باستثناء نخبة قليلة ولدوافع غامضة، وربما بحثا عن مواقع معينة كتبت تجارب تؤكد على التعايش، ومن ذلك الكاتب والروائي واسيني الأعرج في روايتيه "سوناتا لأشباح

القدس 2009 "و "البيت الأندلسي 2010" اللتين حاول فيهما أن يتجاوز الصورة السلبية عن اليهود، فقدم صورة لليهودي الطيب والقابل للتسامح والتعايش على غرار البيت الأندلسي المتنوع، فيما نجد الكاتب أمين الزاوي في روايته " اليهودي الأخير بتمنطيط 2012" أكثر استفزازًا، حيث تجاوز فيها أسوار الممنوع والتاريخ، واستطاع أن يدخل مسارات جديدة على الرواية الجزائرية تنشر الورد في وجه اليهودي بوصفه ضحية لا جلادا ومظلوما عبر التاريخ لا ظالما، وأضاف خطابا آخر شكل صدمة لدى المتلقي الجزائري، عندما قدم صور متعددة للحياة الاجتماعية والثقافية لليهود في وهران، وذلك من خلال روايته " قبل الحب بقليل 2015".

أما الكاتبة ربيعة جلطي في روايتها " حنين بالنعناع2015 " فقد تعرضت إلى الجانب العقائدي من خلال ذكرها مزار النبي يوشع الذي يتخذه اليهود مزارًا في رحلات سرية وتحت جنسيات مختلفة، أما الكاتبة أمل بوشارب فقد تعرضت في روايتها "سكرات نجمة " لخطر اليهود في نشر التعاليم الماسونية بالجزائر، مع ذكر بعض المعالم المكانية الدالة على مراجع معروفة لليهود. وقد أفردت الكاتبة فصلًا كاملًا في حديثها عن ذلك، أما الكاتب إسماعيل يبرير في روايته " وصية المعتوه2013" فقد اتخذ من مقبرة اليهود ملجأ سريًا يستلهم منه وصية الأموات للأحياء، وعلى الرغم من تواجد مقبرة المسلمين ومقبرة المسيحيين في دلالة على حوار الأديان وتعايشهم في المراحل التاريخية السابقة، إلا أن تفضيل مقبرة اليهود تأصيل مكاني ودليل عرفاني لا يدرك سرّه سوى إنسان في عداد المعتوه؟!

فهل تكون هذه المحاولات طريقًا لفهم الآخر من خلال حوار الثقافات أم هو تأصيل مكاني لموروث يحتاج إلى مراجعة مواقفنا؟ أم هو البحث عن الزمن المفقود ؟ أم هي مداخل وتوطئات لموجة التطبيع التي تعرفها المنطقة، وتولت الرواية القيام بدور الممهد وجس النبض، حقا هي ظاهرة تحتاج إلى المزيد من الحفر والتنقيب وتحتاج أيضًا إلى دراسة موضوعية فاحصة وموسعة ومتأنية لا تستجيب للإكراهات والتحيز.

خامسا:صورة اليهودي في رواية (أنا وحاييم):

تدرس رواية (أنا وحاييم) –الصادرة سنة 2018 عن دار ميم ودار مسكلياني– قضية التعايش في الوطن الواحد بين ديانات وثقافات مختلفة، تكسب ذلك المجتمع صفة التنوع والتعدد، وتضمن العيش المشترك والاعتراف المتبادل وأجواء التسامح بعيدا عن العصبيات والأحادية ونفي الآخر وتذويبه، ولأن القضية شائكة ومعقدة فقد بلورت الرواية الصورة التي قبلت التعايش وحملت هموم

الوطن مثلها مثل الآخرين، مع تسجيل ما يضمر الخطاب من رسائل خفية يكشفها الصراع الفلسطيني/الإسرائيلي بوصفه منخرطا في الأنا(العربي المسلم)، ورغم أن الروائي لم يخرج من دولته التي لا يوجد فيها اليهود اليوم، ولكنه استدعى معضلة التعايش غداة الاستقلال، وهروب اليهود من البقاء في الجزائر بالنظر للعقلية الشمولية الإقصائية حسب نظره، وإن كان التاريخ الجزائري لا يسجل بأحرف من ذهب وقوف الجالية اليهودية مع الثورة، ولا نكاد نجد نماذج واضحة، بل بالعكس أنه منذ قانون كريمو في 24 أكتوبر 1870 عرف اليهود الذين كانوا في الجزائر وجهتم، وحسبوا أنفسهم بتوصية من كريمو مع المعمرين والأروبين، وتخلوا عن العرب والسكان الأصليين الذين سمّتهم فرنسا (الأهالي)، لكن الروائي لحبيب السائح في رواية (أنا وحاييم) اعطى نماذج مختلفة من صور اليهود، وحاول إثبات وطنية البطل وبعده عن العالمية، ومن أمثلة الصور التي عكسه الروائي في سرده :

صورة اليهودي الاندماجي العادي: وجسدها ذلك الرجل المسالم (رامون بن كيكي)الذي عاش في الجزائر العاصمة، يعيش حياة عادية، بوضع اجتماعي مريح، يخالط الجزائريين (الأهالي) والمعمرين(الأوربيين)، وكان يرتدي الزي الأوربي، غير متميز بلباس أو سلوك، وقد اقترض من والد أرسلان(البطل الرئيسي مع حاييم) مبلغا من المال ليبني تجارته، وكان في استقبال أرسلان وحاييم بمحطة القطار بالعاصمة، وسعى معهما ليجدا منزلا للكراء(أنا وحاييم، ص 110). وقد صورته الرواية شخصية يهودية عادية همه عمله وتجارته ويتعامل مع جميع الطوائف.

1- صورة اليهودي الاندماجي العادي:

وجسدها ذلك الرجل المسالم (رامون بن كيكي)الذي عاش في الجزائر العاصمة، يعيش حياة عادية،ب وضع اجتماعي مريح، يخالط الجزائريين (الأهالي) والمعمرين(الأوربيين)، وكا ن يرتدي الزي الأوربي، غير متميز بلباس أو سلوك، وقد اقترض من والد أرسلان(البطل الرئيسي مع حاييم) مبلغا من المال ليبني تجارته، وكان في استقبال أرسلان وحاييم بمحطة القطار بالعاصمة، وسعى معهما ليجدا منزلا للكراء(أنا وحاييم، ص 110). وقد صورته الرواية شخصية يهودية عادية همه عمله وتجارته ويتعامل مع جميع الطوائف.

2- صورة اليهودي السيء والمرابي: وجسدتها شخصية (سمير مردوخ) الذي تصفه الروايةب(المرابي، والعفريت..) وصورته بتلك الصور المقيتة التي تجعل منه شخصا يلهث حول المال ودون

أخلاق، همه البحث عن المزادات العلنية وتحيين الفرصة لكل من هو في ضائقة مالية ليبتزه ويسلب منه أرضه ومجوهراته في حالة عجزهم، لينتهي بعضهم للضياع، وبعضهم للجنون وآخرون للهجرة كما حدثت جدة حاييم (الرواية،ص153)، وتكشف شخصية مردوخ اليهودي السيء الطوية، ولذلك قال عنه حاييم(لم يشفع لوالدي عند مردوخ أنه من ملته ودينه لما تجاوز الأجل المحدد لتخليص رهن مجوهرات والدتي من أجل مصاريف تسجيلي في الجامعة) (أنا وحاييم، ص 153). لقد صورت الرواية شخصية مردوخ بأوصاف تحيله على المراوغة والشيطنة والإيمان بالمال فقط، ويستخدم لأجل ذلك كل الطرق والتعابير مثلما مسرح ذلك مع أرسلان عندما أراد أن يبيعه مسدسا.

3- صورة اليهودي المتصهين (كولدا عشيقة حاييم): وهي فتاة من أم يهودية وأب فرنسي، كانت واحدة من أولئك الأوربيات اللائي سارعن لمغادرة الجزائر عشية وقف إطلاق النار، وقد خلقت لحاييم جرحا في قلبه، ومع ذلك رفض المغادرة معها، رافضا شرطها المتمثل في مغادرة الجزائر إلى فلسطين، ولما يئست من استمالته واجهته بوابل من السب والشتم له ولطائفته التوشاقيم قائلة: (أنتم معاشر التوشاقيم الأهالي ما أجبنكم،أنتم عار اليهود في هذا البلد) كما طالبته بعدم رهن شرفه وحياته ودينه لحثالات الأهالي (أما وحاييم، ص258-259).

4- **صورة طائفة التوشاقيم** : وهي الطائفة التي ينتمي إليها حاييم بنميمون، وتتميز بقربها من الأهالي واندماجها في وسط المجتمع الجزائري حسب الرواية، ويتميزون بلباسهم التقليدي، يكاد لا يختلف عن لباس المسلمين في الأحذية والسراويل والعمائم والطرابيش الحمراء (أنا وحاييم، ص158)

وفي معرض التعريض بحاييم وطائفته احتقرته كولدا بقولها: (فأجدادك قبلك لبسوا العباية والبرنوس والحفاظ وصباط(حذاء) زيط زيط مثل الأنديجان، وغنوا غناءهم، وتكلموا لغتهم، وفتلوا كسكسهم، وأكلوه بأيديهم مثلهم قبل أن يعرفوا الملاعق)، (أنا وحاييم، ص 259).

5-صورة طائفة الإشكناز :وهي الطائفة التي تنتمي إليها كولدا الصهيونية، وعاشوا في الدرب ذاته الذي عاش فيه حاييم وأرسلان، ولبسوا الأسود في أغلب الأحيان، ويطلقون سوالفهم، ويضعون ما يسمى" الكيبا" فوق رؤوسهم، قبل أن يختفوا تدريجيا وصاروا مندمجين في الأوربيين أو اختاروا الهجرة.

وكانت هذا الطائفة ميالة للأوربيين قريبة منهم،لأنهم يلبسون لباسهم ويسيرون على سلوكاتهم في الحياة. (ينظر : أنا وحاييم، ص259).

6- صورة اليهودي الجشع كوهين وبوشناق:

يعرف عن اليهود كصورة نمطية مطردة أنهم جشعون ويحرصون على المال وحبه وبذل كل الطرق المشروعة وغيرها للحصول عليه، وعكسه والد أرسلان عندما قال للمتحايلين من الفلاحين بالدارجة:(وجاي تشتكي من اليهودي المرابي اللي أخذ أرضك) (أنا وحاييم،ص192.).

وشخصية اليهودي الجشع ظهرت في الرواية من خلال توظيف شخصيتي بكري كوهين وبوشناق نفطالي، وهما تاجران يهوديان يملكان عقدا حصريا منذ الدولة العثمانية لتصدير القمح ومقايضته مبالغ مديونته للجزائر على فرنسا، ووظفا خبرتيهما في الصفقات للتلاعب بأسعار القمح.(أنا وحاييم، ص 256).

7- صورة اليهودي المناضل الوطني (حاييم) : وتجسدت في صورة حاييم بنميمون الذي شكل مع أرسلان بن حنفي قيمة التعايش والتسامح والاعتراف المتبادل بينهما، حتى أن الثاني المسلم ورث الأول اليهودي، بعد أن اقتسموا الحياة والرفقة وانصهرت في بوتقة الوطن، واندمجت معها الأعراق والثقافات والتقاليد، فقد عاشا ملتحمين متفاهمين كأخوين حميمين، ورسخت الرواية تلك الحالة من التناغم:(يدا بيد، جنبا إلى جنب، كتفا لكتف..) وركزت الرواية على بعض العوامل التي ترسخ التشابه والتقارب في العادات بما في ذلك تشابه بعض الطقوس مثل (الختان، عدم أكل لحم الخنزير، إضافة إلى التجاور وقيم التعايش وعرامة الصداقة والمجايلة والذكريات)، وترسم الرواية صورة حميمية بعيدة عن المماثلة في الواقع، وتستدعي الذاكرة بضرب من الحنين: (كنا أعوام مدرسة جول فيري الابتدائية، جنبا على جنب؛ على طاولة واحدة بمقعدين، ومحبرتين مدة ست سنين، والتمثال الأبيض، وثانوية معسكر وداخليتها ومسيو ويل.." (أنا وحاييم، ص 161) وظل حاييم وطنيا رافضا للخروج من وطنه الجزائر، ويتحدث في حرقة عن اليهود الذين غادروا المدينة إلى فلسطين تاركين أرض الأجداد، وصرخ في وجه كولدا التي أغرته بالمغادرة قائلا: " قلت لهم إلى أين تريدونني أن أغادر؟ هذا وطني."

ولتقديم صورته النضالية المشرقة صورت الرواية حاييم بصورة البطل الذي أسهم في حرب التحرير وقدم اشتراكاته لثورتها، وداوى جرحى الحرب(زليخة)،وأحرق الفرنسيون صيدليته، وبعد الاستقلال

عانى العزلة والتهميش وكاد يقتل في ظل الغوغائية وتحكم الزعماتية الجاهلة واستلاء اللصوصية في البلاد حسب وصف الرواية. لكن التاريخ يحدثنا أن البقية من اليهود الذين بقوا في الجزائر لم يستجيبوا لنداء جبهة التحرير بعد الاستقلال، ولم يلبوا مناشدتها للبقاء رغم تعهدها بحفظ حقوقهم وممتلكاتهم مما يطرح عدة تساؤلات.

تطرح رواية (أنا وحاييم) معضلة التعايش السلمي مع اليهودي، من خلال بطل وطني، شارك في الثورة ورفض السفر إلى فلسطين حسب تخييل الرواية، مما يكشف خطابا مضمرا مفادفه أن السلطة والمجتمع الجزائريين لم يوفروا أجواء التعايش غداة الدولة الوطنية، وهذه الصورة المثالية والوردية بعيدة عن الواقع، وإن وجدت فهي حالات منعزلة تمثل الاستثناء وليس القاعدة التي تفتح ملفا ربما أغلقه الجزائريون وللأبد، بل إن قضية التعامل مع اليهود والتعايش مع الجزائريين جنى عليها قانون كريميو في 24 أكتوبر، والتاريخ يحدثنا أن المحامي اليهودي أدولف كريميو هو من حمل على عاتقه تجنيس يهود الجزائر بصفة جماعية ..فقام بتوثيق صلاته بيهود الجزائر خلال عهد الامبراطورية، و قام بحوالي 17 رحلة الى الجزائر للاتصال بزعمائهم و الاتفاق معهم على الإطار الذي يتم فيه مشروع التجنيس ..و بعد قيام الجمهورية بفرنسا يوم 4سبتمبر1870 عين ادولف كريميو حارسا للأختام بمندوبية بوردو، و كلف بشؤون الجزائر، فواصل مساعيه بإلحاح حتى أقنع حكومة "تور "بقضية التجنيس.. و صدر قانون المفاصلة وسمي قانون كريميو الذي يقضي بالتجنيس الجماعي و الاجباري ليهود الجزائر ..حيث يسجل التاريخ أن اليهود نزعوا بذلهم القديمة و لبسوا لباس الأوروبيين.. وبذلك انتهى رسميا انتماؤهم للمجتمع الجزائري حيث عوملوا كغيرهم من مكونات المجتمع ولم يحفظوا العهد ..و قد أثار قبولهم للتجنيس حفيظة الجزائريين لتكون القطيعة النهائية بين المكونين، و فيهم قلة قليلة جدا ممن كان لهم موقف مشرف، يعرفهم الجزائريون وقد حفظوا لهم ودهم وعاشوا بجانبهم بسلام وعيشة مشتركة.

خاتمة

رواية(أنا وحاييم) للروائي الجزائري الحبيب السائح تتناول تيمة التعايش بين المسلمين واليهود، وقدمت نموذجا لذلك من خلال البطلين : أرسلان بن القايد حنفي المسلم وحاييم بنميمون اليهودي، وقد عاشا في حميمية وتجاور وصداقة مثالية. غير أن هذا اليهودي يتميز بوصفه من طائفة التوشاقيم القريبة في عاداتها وتقاليدها من المسلمين الأهالي، والغيرة الوطنية ولم يعرف عن تاريخه

الخيانة للوطن، بل شارك مع رفيقه في الثورة التحريرية المباركة وقدما اشتراكاتهما وتضحياتهما لاستقلال البلاد. لكننا نسجل أن هذه الفئة قليلة جدا.

تقدم الرواية صورا مختلفة عن اليهود فمنهم اليهودي الاندماجي العادي (بن كيكي)، واليهودي المرابي مثل (سمير مردوخ)، وصورة اليهودي الجشع (كوهين وبوشناق)، واليهودي الصهيوني في شخصية(كولدا رفاييل)، وركزت بشكل أساسي على اليهودي الوطني الذي لم يتخل عن وطنه وقدم من أجله التضحيات الجسام، وتمسك به رغم كل المغريات وجسد هذه الشخصية (حاييم بنميمون).

أبرزت الرواية معضلة التعايش في الجزائر وربطته بأوضاع الجزائر بعد الاستقلال عندما أفرزت الدولة الشمولية والشرعية الثورية والأحادية في كل شيء، مما أفرز إلغاء الآخر ونفيه. ولكن الرواية لم تشر إلى نداءات الجبهة لليهود من أجل البقاء لكنهم رفضوه، وهو نداء موثق ومكتوب، كما أن خطاب الرواية لم يستحضر قانون كريميو الذي ألحق اليهود بالأوربيين وفاصلهم عن الأهالي.

كما أثارت الرواية مظاهر الخلل في الدولة الوطنية من خلال الزعماتية واللصوصية وسيطرة الجهلة والفشلة في دراساتهم وغربة المثقف وتحييده من مراكز القرار.

لم تذكر الرواية القضية الأساسية التي كانت سببا في هجرة اليهود من الجزائر وهي قضية قانون الأهالي المعروف بقانون كريميو الصادر بتاريخ 4 أكتوبر 1840 .

حاولت الرواية التأصيل المكاني لليهود في الجزائر من خلال البيت والحارة(الدرب) والجبانة والبيع وغيرها وهي أماكن محفوظة في الذاكرة الجمعية للمجتمع الجزائري.

الحواشي

[1] الحبيب السائح روائي جزائري له عدة روايات منها: ذاك الحنين، تلك المحبة، تماسخت، زهوة...وروايته هذه (أنا وحاييم) المتوجة بجائزة كتارا للرواية العربية سنة 2018

[2] -1ماجدة حمود، مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000 (دط)، ص 109

3 -المرجع نفسه، ص 110

[4] الصورة، الأنا، الآخر،دانيال هنري باجو وجان مارك مورا، ترجمة : عبدالنبي ذاكر، منشورات الزمن(الرباط)، 2014

[5] المرجع نفسه، ص 15

[6] المرجع نفسه، ص 17

[7] عبدالله التل: خطر اليهود على الإسلام والمسيحية ، دار القلم للنشر،ص 135

[8] جورج قرم : تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب ، تر : الي ذبيان ،ط1،دار الفارابي للنشر والتوزيع ،بيروت، لبنان، ص 81

[9] محمد الباردي : حنة –سيرة ذاتية روائية –الكتاب الاول ،ط1 ،دار كنعان للنشر ،2008. ص 14

[10] خولة حمدي : في قلبي انثى عبرية ،دار الكيان للنشر والتوزيع ، الهرم ، مصر ، 2013 ص34

[11] سورة الحجرات الآية 13

المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

–1ماجدة حمود، مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000(دط).

–2 الصورة، الأنا، الآخر،دانيال هنري باجو وجان مارك مورا، ترجمة : عبدالنبي ذاكر، منشورات الزمن(الرباط)، 2014.

–3عبد الله التل : خطر اليهود على الإسلام والمسيحية ، دار القلم للنشر، ط2، 1964.

4جورج قرم : تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب ، تر : رلي ذبيان ،ط1،دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت ،لبنان. 2011 .

–5 جاك حاسون : تاريخ يهود النيل ، تر : يوسف درويش القاهرة ، دار الشروق ،2008.

–6محمد الباردي : حنة –سيرة ذاتية روائية –الكتاب الاول ،ط1 ،دار كنعان للنشر ،2008.

–7 عادل الأسطة : اليهود في الرواية العربية –جدل الذات والاخر – ط1،الرقمية للنشر، رام الله (فلسطين)،2012

–8خولة حمدي : في قلبي انثى عبرية ،دار الكيان للنشر والتوزيع ،الهرم ، مصر ، 2013

–9 انا وحاييم، الحبيب السايح، دار ميم(الجزائر)مسكيلياني (تونس) ط1 تونس،2018